محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

إعداد وتقديم: الدكتور محمد عبد الغني

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدين،

أما بعد:

أيها الإخوة الأفاضل، السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

إن التوحيد أساس الدين وغاية دعوة المرسلين، وفي هذه المحاضرة سنناقش مسألة تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات، لنبين أن هذا التقسيم ليس بدعةً أحدثها ابن تيمية، كما يزعم بعض الناس، وإنما هو تقسيم مستنبط من نصوص الكتاب والسنة، وأن معانيه وتقريراته وردت في كلام عدد من العلماء المتقدمين، قبل ابن تيمية وبعده، ومن مدارس ومذاهب متعددة.

وسنتناول معنى التوحيد ومكانته، وأصل هذا التقسيم ومشروعيته، ونستعرض نماذج من أقوال العلماء الذين تحدثوا عن هذه المعاني، ونوضح الفرق بين الإقرار بربوبية الله وإفراده بالعبادة، لنصل إلى تقرير أن العبرة ليست بمجرد المصطلحات والتقسيمات، وإنما بصحة المعاني واستنادها إلى الأدلة الشرعية، وأن اختلاف العلماء في أساليب التصنيف لا يقتضي بالضرورة اختلافهم في أصول العقيدة.

والغاية من ذلك بيان المسألة بأدلتها، والرد العلمي على دعوى ابتداع هذا التقسيم، بعيدًا عن التعصب والجدل، وبالاعتماد على النصوص والنقول الموثقة.

أولًا: معنى التوحيد لغةً وشرعًا

والتوحيد لغةً: هو الإفراد، ولا يكون الشيء مفردًا إلا بأمرين:

الأول :الإثبات التام.

والثاني :النفي العام.

فلو قلت: "زيد قائم"، فهل أفردته بالقيام بعبارتك هذه؟ لم تفرده؛ لأن غيره قد يكون قائمًا.

لكن متى تُفرِد زيدًا في القيام؟ إذا قلت مثلًا: "ما قام إلا زيد"؛ فأثبتَّ القيام له، ونفيته عن غيره.

—

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

ولذلك فإن التوحيد هو إثبات الوحدانية لله سبحانه في ربوبيته وإلهيته وأسمائه وصفاته، ونفي ذلك عن غيره.فتقول: "لا إله إلا الله"، أي: لا معبود بحق إلا الله، وهذا هو التوحيد.

هل يسوغ إطلاق لفظ التوحيد على العقيدة؟

التوحيد جزء من العقيدة، وإطلاق التوحيد على العقيدة من باب تسمية الشيء بأشرف أجزائه وأشرف أصوله؛ لأن التوحيد هو أهم مباحث العقيدة.

ألم يقل النبي ﷺ: "الحج عرفة"؟ فهذا من باب تسمية الأمر بأهم شيء فيه.

فالتوحيد هو أشرف مباحث الاعتقاد، مع أن العقيدة تشمل الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وغيرها، ولكن التوحيد هو أساسها وجوهرها؛ ولأن الرسل أيضًا بدؤوا به.

فإذا أردت تعلّم العقيدة، فما أول شيء تتعلمه؟

الجواب هو التوحيد.

هل ورد في القرآن والسنة لفظ التوحيد؟

نعم.قال الله تعالى:﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

ولما أرسل النبي ﷺ معاذًا إلى اليمن، قال:وليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحّدوا الله

ووردت كلمة التوحيد في قوله ﷺ:يُعذَّبُ ناسٌ من أهل التوحيد في النار.

ويُروى عن حبر الأمة ومفسرها عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال:كل ما في القرآن من الأمر بالعبادة فالمراد به التوحيد وعنه أيضًا في سورة الكافرون:ليس في القرآن أشد غيظًا لإبليس منها؛ لأنها توحيد وبراءة من الشرك".

ويقول المزني:لقد سمعت الشافعي يقول: سُئل مالك عن الكلام والتوحيد، فقال:مُحال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علّم أمته الاستنجاء ولم يعلّمهم التوحيد.

والتوحيد ما قاله النبي ﷺ:أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله.

فما عُصم به الدم والمال حقيقة التوحيد.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

هل ألّف العلماء في العقيدة كتبًا سموها "التوحيد"؟

نعم.

ألّف كتاب "التوحيد" ابن سريج البغدادي، المتوفى سنة 306هـ.

وألّف الحافظ ابن خزيمة، المتوفى سنة 311هـ، كتاب "التوحيد وإثبات صفات رب العالمين".

وألّف الحافظ ابن منده، المتوفى سنة 395هـ، كتاب "التوحيد".

وورد مصطلح التوحيد عند البخاري، المتوفى سنة 256هـ، اسمًا لباب من أبواب أحاديث العقيدة.

أما تقسيم التوحيد إلى أقسام،

فقد قسَّمه العلماء تقسيمات متعددة، وهذه التقسيمات اصطلاحية استقرائية، استخرجها العلماء من خلال تدبّر آيات القرآن الكريم وأحاديث السنة النبوية، وجمع المعاني التي دلت عليها نصوص الوحي وتصنيفها؛ لتيسير فهمها وتعليمها.

ومن الآيات الجامعة لمعاني التوحيد قول الله تعالى:

﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: 65].

فهذه الآية الكريمة تجمع معاني تتصل بأقسام التوحيد الثلاثة، ويمكن بيان ذلك على النحو الآتي:

أولًا: توحيد الربوبية.

يتجلى في قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ فهو سبحانه رب كل شيء، وخالقه ومالكه ومدبّره.

ثانيًا: توحيد الألوهية.

يتجلى في قوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾؛ ففي الآية أمرٌ بإفراد الله سبحانه بالعبادة، والثبات عليها والصبر على القيام بها، وهذا هو معنى توحيد الألوهية.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات.

يُستأنس له بقوله تعالى: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾؛ فقد ذكر المفسرون في معنى «السَّمِيّ» النظير والمثيل، وذكروا كذلك معنى مَن يُسمّى باسمه. وعلى هذه المعاني، يظهر ما لله سبحانه من التفرد، وانتفاء النظير والمثيل عنه فيما يختص به من أسمائه وصفاته.

وهنا ينبغي التنبيه إلى أن الآية لا تذكر عبارة «توحيد الأسماء والصفات» بوصفها مصطلحًا اصطلاحيًّا، وإنما يُستنبط منها معنى يتصل بهذا القسم من أقسام التوحيد. فليس شرطًا أن ترد الأقسام الثلاثة في آية واحدة بأسمائها الاصطلاحية، وإنما العبرة بدلالة النصوص على المعاني التي تُجمع تحت هذه الأقسام. وبذلك تجتمع في الآية معانٍ تتصل بالربوبية والألوهية والأسماء والصفات؛ فالله سبحانه هو رب السماوات والأرض، وهو المستحق للعبادة، والمتفرد الذي لا نظير له ولا مثيل. ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]؛ إذ جمعت الآية بين نفي المماثلة عن الله تعالى وإثبات صفتي السمع والبصر له سبحانه.

إقرار المشركين بالربوبية وعدم اكتفائه بها

ومن الأدلة التي تبيّن الفرق بين توحيد الربوبية وتوحيد الألوهية أن كفار قريش كانوا يقرّون بأن الله سبحانه هو خالق السماوات والأرض، وأنه الخالق الرازق والمدبّر. قال تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾.

ومع إقرارهم بأن الله هو الخالق، لم يكونوا موحّدين له في العبادة؛ إذ صرفوا شيئًا منها إلى الأصنام والآلهة التي اتخذوها من دونه. وقد حكى الله عنهم قولهم:﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]. فكانوا يقرّون بربوبية الله سبحانه، ولكنهم أشركوا به في العبادة، واتخذوا وسائط يعبدونها من دونه، زاعمين أنها تقرّبهم إليه. ومن هنا يتضح أن الإقرار بربوبية الله وحده لا يكفي لتحقيق التوحيد الذي جاءت به الرسل؛ بل لا بد من إفراده سبحانه بالعبادة، وهو جوهر توحيد الألوهية.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

مناقشة الاستدلال بقوله تعالى: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾

ولا يصح حصر التوحيد في توحيد الربوبية وحده، كما يستدل بعضهم بقوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: 172].

وقد يقول قائل: إن الله تعالى قال: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾، ولم يقل: «ألست بإلهكم»، فيُستدل بذلك على الاكتفاء بتوحيد الربوبية.

والجواب أن ورود لفظ الربوبية في الآية لا يدل على حصر التوحيد فيها، ولا على الاستغناء عن توحيد الألوهية؛ إذ إن دلالات الألفاظ لا تقتصر على المعنى المطابق للفظ، بل قد تدل عليه بالمطابقة أو التضمّن أو الالتزام.

ومن ذلك أن الإقرار بأن الله سبحانه هو الرب يقتضي الإقرار بأنه المستحق للعبادة؛ فالربوبية تدل على كمال ملكه وتدبيره وخلقه، وهذه المعاني تقتضي إفراده بالعبادة والطاعة. فالدلالة هنا دلالة التزام، ولا يلزم من ورود لفظ الربوبية في الآية أن يكون المقصود حصر التوحيد في هذا الجانب وحده.

اجتماع توحيدي الربوبية والألوهية في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾

ويؤكد هذا الترابط بين الربوبية والألوهية قول الله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 21–22].

فقد تضمنت الآيتان توحيدي الربوبية والألوهية معًا:

- أما توحيد الألوهية، فيظهر في قوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾، وهو أمر بإفراد الله بالعبادة، وفي قوله: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾، وهو نهي عن اتخاذ الشركاء والأمثال مع الله سبحانه.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

- وأما توحيد الربوبية، فيظهر في بيان أن الله تعالى خلق الناس ومن قبلهم، وجعل لهم الأرض فراشًا والسماء بناءً، وأنزل من السماء ماءً، فأخرج به من الثمرات رزقًا لهم. فهذه كلها دلائل على ربوبيته سبحانه، وانفراده بالخلق والإنعام والتدبير.

ثم ختم الله تعالى الآية بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي إنكم تعلمون ما يدل على انفراد الله بالخلق والإنعام، فكيف تجعلون له أندادًا وتصرفون العبادة لغيره؟

وهكذا يتبين أن القرآن الكريم يجمع بين تقرير ربوبية الله سبحانه والأمر بإفراده بالعبادة، ويقيم الدليل على استحقاقه لها بما له من صفات الخلق والملك والإنعام والتدبير. وهذا يؤكد أن تقسيم التوحيد إلى أقسام ليس إنشاءً لمعانٍ منفصلة عن الوحي، وإنما هو تصنيف علمي لمعانٍ دلّت عليها النصوص، مع بقاء التوحيد حقيقةً واحدةً متكاملةً لا ينفصل بعضها عن بعض.

فما هي مبررات تقسيم التوحيد إلى أقسام؟

أولًا: لا مشاحة في الاصطلاح

ومعنى "لا مشاحة" أي: لا تنازع، وهذه قاعدة معروفة عند الفقهاء والأصوليين.

ثانيًا: التقسيم للتفهيم والتعليم، لا للمغايرة من أجل أن يتعلم الناس مما يتكون التوحيد الشرعي.

فمثلًا، يقول الناس: الإنسان جسد وروح؛ فالروح وحدها ليست إنسانًا، والجسد وحده ليس إنسانًا، وإنما الجسد والروح هما الإنسان. فلم يلزم من هذه القسمة قيام حقيقة الإنسان بأحد القسمين دون الآخر.

وكذلك قسّم علماء الأصول الأحكام الشرعية إلى خمسة أحكام: الواجب، والمندوب، والمباح، والمكروه، والمحظور.

ومن مرامي هذا التقسيم تيسير فهم النصوص والأحكام الشرعية.

وفي العقيدة، قسّم العلماء التوحيد إلى تقسيمات؛ فمنهم من قال: ينقسم إلى قسمين:

- توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

- ومنهم من قال: التوحيد العلمي الخبري، والتوحيد الإرادي الطلبي.
- ومنهم من قال: التوحيد القولي، والتوحيد الفعلي.
- ومنهم من قال: توحيد السيادة، وتوحيد العبادة.

ومنهم من قسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام، زيادة في تسهيل الفهم والمعرفة:

توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات.

ومنهم من قسمه إلى أربعة، فزاد على الثلاثة الإيمان بوجود الله.

ومنهم، كالأشاعرة، من قسم التوحيد إلى ثلاثة أمور:

1. أن الله واحد في ذاته لا قسيم له.
2. وأنه واحد في صفاته لا شبيه له.
3. وأنه واحد في أفعاله لا شريك له.

فالتوحيد هو نفي التثنية أو التعدد، ونفي التبعيض والتركيب والتجزئة.

ثالثًا: تقسيم التوحيد ليس محدثًا

إن تقسيم العلماء للتوحيد إلى ربوبية وألوهية ليس محدثًا، بل هو موجود في القرن الثالث والرابع عند علماء السلف، وتبعهم في ذلك كثير من العلماء القدامى والمعاصرين، مع اختلاف مناهجهم ومذاهبهم.

أقوال العلماء في تقسيم التوحيد إلى ربوبية وألوهية

1- الإمام أبو حنيفة

قال الإمام أبو حنيفة، المتوفى سنة 150هـ، في «الفقه الأبسط» (ص: 51):

"والله يُدعى من أعلى لا من أسفل؛ لأن الأسفل ليس من وصف الربوبية والألوهية في شيء.

2- ابن جرير الطبري

قال ابن جرير الطبري، المتوفى سنة 310هـ، في تفسيره "جامع البيان" (53/13)، عند تفسير قوله تعالى:﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ﴾:وأن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا له لانفراده بالربوبية وتوحده بالألوهية".

3- أبو منصور الماتريدي (ت: 333هـ)،

وهو إمام الماتريدية، ويعدّه الأشاعرة المعاصرون إمامًا.

وردت عنه بعض العبارات التي تدل على تقسيمه للتوحيد إلى قسمين: ربوبية وألوهية، حين تحدث عن أقوام الأنبياء الجاحدين للرسالة والعابدين لغير الله، حيث قال:"فإنه لم يُذكر عن غير الإله الذي يعرفه أهل التوحيد دعوى الإلهية والإشارة إلى أثر فعل منه يدل على ربوبيته" (التوحيد، ص.(20 :

وقال:"مجيء الرسل بالآيات إبطال ربوبيتهم وألوهيتهم" (التوحيد، ص.(20 :

وقال أيضًا:"الحمد لله المتوحد بالقدم والإلهية المتفرد بالدوام والربوبية" (التوحيد، ص.(221 :

4- الحافظ ابن حبان

قال الحافظ ابن حبان، المتوفى سنة 354هـ، في مقدمة كتابه "روضة العقلاء ونزهة الفضلاء":

"الحمد لله المتفرد بوحدانية الألوهية، المتعزز بعظمة الربوبية".

5- العكبري

المتوفى سنة 387هـ، في كتابه "الإبانة الكبرى":

"أن أصل الإيمان بالله الذي يجب على الخلق اعتقاده في إثبات الإيمان به ثلاثة أشياء:

أحدها: أن يعتقد العبد ربانيته؛ ليكون بذلك مباينًا لمذهب أهل التعطيل الذين لا يثبتون صانعًا.

والثاني: أن يعتقد وحدانيته؛ ليكون مباينًا بذلك مذاهب أهل الشرك الذين أقروا بالصانع وأشركوا معه في العبادة غيره.

والثالث: أن يعتقده موصوفًا بالصفات التي لا يجوز إلا أن يكون موصوفًا بها من العلم والقدرة والحكمة، وسائر ما وصف به نفسه في كتابه".

6- أبو بكر الباقلاني

قال أبو بكر الباقلاني (ت: 403هـ)، وهو من أكابر علماء الأشاعرة، بل من مؤسسي مذهبهم: "قف على هذه الدلالة، وفكّر فيها، وراجع نفسك في مراعاة معاني هذه الصفات العالية، والكلمات السامية، والحكم البالغة، والمعاني الشريفة؛ تعلم ورودها عن الإلهية، ودلالتها على الربوبية".إعجاز القرآن، ص).(199

7-الإمام القرطبي

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، المتوفى سنة 671هـ، في تفسيره "الجامع لأحكام القرآن" :(1/72)"فالله اسم للموجود الحق الجامع لصفات الألوهية، المنعوت بنعوت الربوبية، المتفرد بالوجود الحقيقي، لا إله إلا هو سبحانه".

8- الإمام البيضاوي

قال الإمام البيضاوي، المتوفى سنة 691هـ، في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل"، في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾:"تعالى بالوحدانية في الألوهية، وتعظم بالتفرد في الربوبية".

كما ذكر الزمخشري، المتوفى سنة 538هـ، من قبله مصطلح الربوبية في تفسيره ستًا وعشرين مرة.

9- الإمام ابن أبي العز الحنفي

قال الإمام الفقيه ابن أبي العز الحنفي، المتوفى سنة 792هـ، في شرحه على العقيدة الطحاوية: "التوحيد يتضمن ثلاثة أنواع: أحدها: الكلام في الصفات، والثاني: توحيد الربوبية وبيان أن الله وحده خالق كل شيء، والثالث: توحيد الألوهية، وهو استحقاقه أن يُعبد وحده لا شريك له".

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

10 العلامة شهاب الدين الألوسي

قال العلامة شهاب الدين الألوسي، المتوفى سنة 1270هـ، في تفسيره "روح المعاني":(26/59)

"وهي عند السادة الصوفية جامعة لجميع مراتب التوحيد، ومراتبه أربع:

الأولى: توحيد الألوهية.

الثانية: توحيد الأفعال.

الثالثة: توحيد الصفات.

الرابعة: توحيد الذات".

11–الدكتور محمد راتب النابلسي

ومن المعاصرين الدكتور محمد راتب النابلسي في كتابه "أسماء الله الحسنى".

يقول في التمهيد:"إن فهم أسماء الله الحسنى والإيمان بها على هذا النحو جزء من عقيدة التوحيد، التي تشمل توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد الأسماء والصفات".

ويقول في كتابه:"وكلمة لا إله إلا الله تقتضي أن تعبده، وأن تؤمن بربوبيته؛ لا معنى أن تعبده دون أن تؤمن به، لكن إذا آمنت بربوبيته لا يعني أنك تعبده، إن آمنت بألوهيته أنه المستحق وحده للعبادة، هذا يقتضي أنك آمنت بربوبيته، أما العكس فغير صحيح".

12– الشيخ محمد متولي الشعراوي

ومنهم الشيخ محمد متولي الشعراوي في "خواطر التفسير"، فكثيرًا ما يركز على أقسام التوحيد في الآيات.ففي تفسير قول الله تعالى:﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾يقول:"هذا إقرار يجمع بين عطاء الربوبية والاعتراف به وعطاء الألوهية".

وفي قوله تعالى:﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾قال:"هنا ربوبية".

وفي قوله تعالى:﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ قال:"وهنا ألوهية".

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

13-الشيخ محمد رمضان سعيد البوطي

وسُئل الشيخ محمد رمضان سعيد البوطي عن توحيد الربوبية والألوهية في الآيتين:

"كيف نفهم قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾؟"

فأجاب:"يؤمنون بخالقية الله للسماوات والأرض، ولكنهم يشركون معه في العبادة الأوثان؛ إذن فهم مشركون كغيرهم بربوبية الله وألوهيته".الفتاوى

أيها الإخوة الأفاضل، بعد هذه الجولة العلمية في مسألة التوحيد وتقسيمه إلى أقسام، يمكننا أن نخلص إلى جملة من التقريرات والنتائج التي ينبغي أن نعيها ونضبطها:

أولًا :التوحيد هو أساس الدين وأصل دعوة المرسلين.

فجميع الرسل دعوا أقوامهم إلى عبادة الله وحده، ونبذ الشرك به، قال الله تعالى:﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ (النحل 36).

فليس المقصود من دراسة التوحيد مجرد معرفة المصطلحات والتقسيمات، وإنما المقصود تحقيق عبادة الله وحده، علمًا واعتقادًا وقصدًا وعملًا.

ثانيًا :تقسيم التوحيد إلى أقسام هو تقسيم اصطلاحي تعليمي.

فالعلماء يستقرئون النصوص الشرعية، ثم يصوغون منها تقسيمات تساعد على الفهم والتعليم، وليس من الضروري أن يرد كل تقسيم بلفظه في القرآن الكريم أو السنة النبوية؛ إذ العبرة بأن تكون المعاني التي يتضمنها التقسيم مستندة إلى الأدلة الشرعية.

ومن هنا نفهم أن عدم ورود التقسيم الثلاثي بلفظه لا يكفي وحده للحكم ببطلانه، كما أن مجرد وضع تقسيم اصطلاحي لا يجعله نصًّا شرعيًّا ملزمًا بذاته.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

ثالثًا :لا مشاحة في الاصطلاح ما دامت المعاني صحيحة.

فقد قسّم العلماء التوحيد تقسيمات متعددة؛ فمنهم من قال :توحيد المعرفة والإثبات، وتوحيد القصد والطلب، ومنهم من قسمه إلى الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ومنهم من سلك مسالك أخرى في التعبير والتصنيف.

وهذه التقسيمات ينبغي أن تُفهم في سياقها العلمي، وألا نجعل اختلاف العبارات دليلًا لازمًا على اختلاف المعتقدات؛ بل لا بد من النظر في حقيقة المعاني التي يقصدها أصحابها.

رابعًا :الإقرار بربوبية الله لا يستلزم بالضرورة تحقيق توحيد الألوهية.

وهذه من أهم المسائل التي تناولناها في المحاضرة؛ فقد كان المشركون يقرون بأن الله هو الخالق والرازق، ومع ذلك لم يكن هذا الإقرار كافيًا لتحقيق التوحيد؛ لأنهم صرفوا بعض العبادات لغير الله سبحانه.

قال الله تعالى:﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ يوسف (106).

فالإقرار بأن الله هو الخالق لا يغني عن إفراده بالعبادة، كما أن معرفة أسماء الله وصفاته لا بد أن تنعكس على إيمان العبد وعبادته وسلوكه.

خامسًا :توحيد الربوبية والألوهية والأسماء والصفات معانٍ متكاملة.

فالإيمان بأن الله سبحانه هو الخالق المدبر يقتضي الإيمان باستحقاقه وحده للعبادة، والإيمان بأسمائه وصفاته على الوجه اللائق به سبحانه جزء أصيل من معرفة العبد بربه.

ولهذا لا ينبغي أن يُفهم التقسيم الثلاثي على أنه تجزئة للتوحيد إلى أجزاء يستغني بعضها عن بعض، وإنما هو وسيلة لبيان المعاني التي يقوم عليها توحيد الله عز وجل.

سادسًا :تقسيم التوحيد ليس من القضايا التي ينبغي أن تتحول إلى سبب للتنازع والتباغض.

فالمقصود من العلم تقريب الحقائق، وتحرير محل النزاع، وفهم الأدلة، لا الانتصار للألفاظ والمصطلحات لمجرد أنها ألفاظ ومصطلحات.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

وإذا اختلف العلماء في طريقة التقسيم، وجب أن نبحث في أقوالهم وأدلتهم بإنصاف، وأن نفرّق بين الاختلاف في الاصطلاح والاختلاف في المعنى، وبين المسائل المتفق عليها والمسائل التي تحتاج إلى مزيد من البحث والتحرير.

سابعًا :أقوال العلماء تُفهم في سياقها، ولا تُحمَّل ما لا تحتمل.

وقد عرضنا في هذه المحاضرة نماذج من أقوال عدد من العلماء المتقدمين والمعاصرين، وظهر من خلالها استعمال مصطلحي الربوبية والألوهية، وورود معانيهما في كتب متنوعة.

لكن المنهج العلمي يقتضي أن ننظر في دلالة كل نص على وجه التحديد، وأن نفرّق بين استعمال المصطلحين، وبين التصريح بالتقسيم الثلاثي كاملًا؛ فليس كل نص يذكر الربوبية والألوهية دليلًا وحده على تبنّي صاحبه التقسيم الثلاثي بصورته المعروفة.

وهذا من الأمانة العلمية التي ينبغي أن يتحلى بها طالب العلم والباحث في مسائل العقيدة.

كلمة أخيرة

أيها الإخوة الكرام، إن التوحيد ليس مجرد عنوان في كتاب، ولا تقسيمًا نردده في الدروس، ولا مصطلحات نحفظها ثم نمضي؛ بل هو حقيقة الإيمان، وأساس العلاقة بين العبد وربه، ومنطلق العبادة والاستقامة.

وينبغي التنبيه إلى أن هذه الأقسام ليست أجزاءً منفصلة من التوحيد، بل هي معانٍ متلازمة ومتكاملة؛ فالإيمان بربوبية الله سبحانه يقتضي إفراده بالعبادة، وتوحيد الأسماء والصفات يتضمن إثبات ما أثبته الله لنفسه من الأسماء والصفات على الوجه اللائق بجلاله، مع تنزيهه عن مماثلة المخلوقين. والمقصود من هذا التقسيم توضيح معاني التوحيد، لا تفريقها أو جعل بعضها مستغنيًا عن بعض.

فلنحرص على تعلم التوحيد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وفهم كلام العلماء في ضوء الأدلة، مع الإنصاف في عرض الأقوال، والبعد عن التعصب، والحرص على جمع الكلمة على الحق.

محاضرة حول تقسيم التوحيد إلى ثلاثة أقسام

ولنتذكر دائمًا أن الغاية ليست أن ننتصر لمصطلح، أو نغلب مخالفًا في جدل، وإنما أن نعرف الله سبحانه حق المعرفة، وأن نعبده وحده لا شريك له، وأن نحقق مقتضى هذا الإيمان في أقوالنا وأعمالنا وحياتنا كلها.نسأل الله تعالى أن يرزقنا العلم النافع، والعمل الصالح، والإخلاص في القول والعمل، وأن يجعلنا من أهل التوحيد الخالص، وأن يحيينا عليه، ويتوفانا عليه، ويحشرنا في زمرة الموحدين.

والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الدكتور محمد عبد الغني